دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: عالم العميان و علم النفس
المصدر: مجلة علم النفس
الناشر: جماعة علم النفس التكاملى
المؤلف الرئيسي: عجبان، جليل شكري
المجلد/العدد: مج 4, ع 1
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1948
الشهر: يونيو
الصفحات: 77 - 90
رقم MD: 523923
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: EduSearch
مواضيع: العميان ، الإحساس
رابط: http://search.mandumah.com/Record/523923

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

عالم العميان وعلم النفس

بقلم
ملبيل شكرى عجبانه
مدرس الفلسفة بالعباسية الثانوية بالاسكندرية

اعتدنا أن نقيم للعميان عالماً قائماً بذاته ، لا نعرف عنه الكثير ، وما نعرفه يسوده الكثير من الغموض . وإلى عهد ليس بالبعيد أخذ كثير من معامى مدارس العميان ، يهتمون اهتماماً بالغاً بالاستعانة بعلم النفس ، داخل معاهدهم ، فحاول البعض وضع مستوى معين لاختبارات الذكاء ومدى إدراك تلاميذهم وتفهمهم لما حولهم . ولقد وافق هذا تنبه الأذهان لبحوث الأساتذة النفسيين المختصين ، فى هذا الميدان الخصب والغفل معاً .

ولعل أهمية هذا النوع من الدراسة تبدو جلية لو أدركنا أن فقدان البصر وما يحيط به من عوالم خاصة ، هو من الحالات الشاذة التى نقابلها أو تقابلنا فى الحياة ، ولم يفهمها أو يقدرها إلا القليلون ، فضلا عن أن ما كتب فيها ملىء بالتضليل ، فرسمت حول حياتهم ظلالا من الفزع ، والأحاديث الغريبة ، فساعد هذا على أن تنسج حول عالمهم ، شيئاً فشيئاً ، الخرافات والأساطير .

ولا شك أن البحث فى مثل هذا الموضوع يفيد فى الوقوف على كثير من الاعتقادات المتداولة عن العميان ، منها الخاطئ فنتجنبه ، والصحيح فنتأدى منه إلى نتائج علمية ، أو يرينا بعض المشاكل التى لم تحل ، والتى يمكن بشىء من الأناة أن نصل فيها إلى نتائج لا بأس بها .

وأولئك الذين ألفوا القراءة عن العميان ، ألفوا الكثير من الشائعات والخرافات التى نسجت حول أعمالهم العجيبة . فكم قرأنا أو سمعنا عن حساسية الأعمى الغريبة للمس ، أو حساسية سمعية فائقة ، وغير هذا أو ذاك ممن يميزون الألوان المختلفة بمجرد لمس نسيج الأقمشة ، أو شم رائحة الأصباغ ، وكم قرأنا عن الحساسية الوجهية التى يتمكن بواسطتها أن يتفادى العقبات فى طريقه ، أو الذاكرة العجيبة التى تمكن صاحبها أن يعى مئات من الأسماء ، تعرف بأصحابها فى حفل عام ، لأول

مرة ، أو بعض الأشخاص الذين يتمكنون من إدراك الاتجاهات المختلفة بمجرد تحسسهم لخريطة خاصة بذلك .

ويميل القارئ العادى إلى تقبل هذه الحكايات دون نقد كثير أو قليل ، فجرت ألسنتهم بأن الأعمى وقد حرم من نور عينيه ، تعوضه الطبيعة قوة فائقة فى الحواس الأخرى ، لتصبح أكثر حدة من سواها لدى المبصرين ، هكذا ساد الاعتقاد بأن للأعمى ذاكرة قوية ، وانتباهاً حاداً ، وسمعاً دقيقاً ، هذا كله على اعتبار أنهم يعتمدون على أنفسهم أكثر من اعتمادهم على البيئة المحيطة بهم أو على المساعدات الخارجية ، كالمذكرات أو الخرائط أو اللافتات ... لهذا جرت العادة بأن نضفى على العميان — كمجموعة — كثيراً من الحكايات التى تدور حول تفوق العميان فى الحساسية المادية ، ولذا يعزب عن بال الكثيرين أن من العميان من تضعف حواسهم لدرجة أنها لا تعينهم على استقبال الإحساسات الخارجية ، بل منهم من عدم الحساسية باللمس فافتقر إلى تعلم الكتابة بأطراف أصابعه ، بجهد كبير ، فاشل معاً ، وكثير من العميان من يتخبطون فى طريقهم ، ويصطدمون فيما يصادفونه من العوائق المادية ، وينتظرون مساعدة بعض المارة ، ولذا نلاحظ أن الكثيرين من العميان لا يستقلون عن مساعدة العالم الخارجى ، أو يتنقلون بحرية ، إلا إذا كانت لديهم الشجاعة الأدبيـــة أو قوة العزيمة ، التى تجعلهم يتقبلون موقفهم الراهن ، على علاته ، وما يصيبهم من رضوض ، أو تعثر واصطدام ، بروح طيب ، بل وبشىء من المرح ، كأنها أصبحت جزءاً مكملا لحياتهم .

وفى كلمة واحدة فإن جماعة العميان ليست من الأعاجيب أو المدهشات وإنما هى كجماعة المبصرين تماماً ، بعضهم يتفوق فى ناحية ، والبعض فى ناحية أخرى وليس هناك من قانون بينهم يحتم أن يكونوا حديدى الحواس ، بل يتفاوتون فى حياتهم وعالمهم ، تفاوت المبصرين فيما بينهم .

ولعل ما نقرأه كثيراً ، ومشوهاً عن هذه الطائفة ، محصور فى دائرة الأدب العام أو السطحى ، الذى يهدف إلى تشويق القارىء ، والترويج للكاتب أكثر مما يهدف إلى الحقيقة نفسها ، فنجد أن الجارى بين العامة ، وفى بعض المقالات الصحفية ، هو خليط من الشفقة والتعجب أو العجب ، مبنيان على الجهل ، ويمهدان لسيل عرم من الخرافات والأقاصيص الوهمية . ويعطينا البحاثة هايز Hayes ، بعض الأمثلة على لسان أحد الكتاب العميان ، « كلارنس هوك » فيقول : « إن مئات من

الناس يسألونني عما إذا كان بوسعى أن أميز اللون بحاسة اللمس ! ولكن قليلا من الذوق السليم ، يجعلنا نتساءل ، كيف أن شخصاً أعمى يمكن أن يخبر عن اللون بمجرد حاسة اللمس ! ؟ ولا يمكن أن نفسر هذا إلا على ضوء الميل الشائع بين الناس ، إلى أن ينسبوا كل غريب شاذ إلى طائفتنا ، لا لشيء إلا لأن بعض جماعات العميان أرادوا مرة أن يستثيروا دهشة أصدقائهم بما يبدونه من ألاعيب غريبة ، تبدو كالسحر » ويقول المستر هوك ، إنه فى الإمكان حقاً أن يميز الأعمى بين لون حصان وحصان دون أن يكون لحاسة اللمس ذاتها أو قدرة الأعمى اللمسية أى أثر فى هذا ، وإنما يشترط فقط خبرة طويلة بالخيل ، وألوانها المختلفة ، فكل لون يتميز بفروة خاصة ونعومة خاصة ، وملمس خاص ؛ كذلك يمكن معرفة ألوان الزهور العادية بلمسها أو برائحتها عن طريق التخمين ، وبشيء ليس بالقليل من الخبرة بها ، ولو أن هذا يبدو عسيراً لتعدد أنواع الزهور التى عرفت . ومن الأسئلة العادية التى ألف المبصرون أن يسألوها للعميان ، ما إذا كان فى وسعهم أن يميزوا بين النقود ، أو الأوراق المالية ، ويجيب المستر هوك عن هذا التساؤل ، بأن فى وسعنا أن ندرك أن البعض فعلا يمكنهم أن يميزوا بينها . وليس فى ذلك غرابة أوسحر ، لولاحظنا إمكان التمييز بين سمك الورق أو حجمه ، ومع ذلك فقد لا يفيد ذلك كثيراً . ومن ناحية أخرى فقد جرت العادة بأن بعض العميان يحملون مفكرة ، بها عدة عيون ، لأوراق النقد المختلفة ، فيمكنهم أن يعرفوا ما يحتاجون له منها ، فيوهمون من حولهم ، أنهم يدركونها بمجرد حاسة اللمس ، وهذا لا يمنع بحال ، قدرتهم على تمييز القطع الفضية لوضوح حجمها وملمسها ، شأنهم شأن المبصرين .

وهناك كثير من العميان يتعلمون أشياء كثيرة ، تبدو عسيرة أو مستحيلة ، لدى المبصرين ، فيقول المستر هوك « إن من الأشياء التى يقوم بها العميان ، ما يعتبر تمييز الألوان ، أو النقود ، بالنسبة إليه شيئاً يسيراً ؛ ومن ذلك « لضم » إبرة بوضع نهاية الخيط على اللسان وتحريك رأس الإبرة عند طرف الخيط حتى يدخل فى الثقب . أو إصلاح بعض الآلات الدقيقة أو الأعمال الميكانيكية التى تحتاج إلى فنان ماهر » .

نلاحظ إذن فى بعض الحالات أن استعمال اللسان يسهل الأمر كثيراً ، لأنه يعتبر من أدق الأعضاء إحساساً للمس ، ويمكن لأى شخص أن يدرك هذا ، حين يحاول أن يلمس تجاويف الأسنان ، بأطراف الأصابع ، ثم بطرف اللسان ،

فيجد الفرق كبيراً فى الحالين ، إذ فى الحالة الأولى تكون التجاويف أقل وضوحاً . وهناك من العميان من تفقد أصابعهم الحساسية للمس ، فيستعملون طرف لسانهم فى قراءة الحروف بنجاح كبير .

كذلك تختلف درجة إدراك العميان لما يحيط بهم بحسب مدى حساسية أعضائهم ، فمنهم من يمكنه أن يقرأ الحروف البارزة ، وقد فصل بينها وبين أطراف أصابعه ، أربعة من المناديل الحريرية ، أو يلعب على المعزف وقد فصل بينه ومفاتيح الأوتار ، غطاء من الجوخ السميك ، أو يقدر وزن مجموعة من الورق ، أو نوع النسيج ، إلى آخر هذه الأشياء . وعلى كل لا بد لهذا كله من تجارب .

وبوجه عام ، حين نبحث فى عالم الأعمى ينبغى أن نحذر ذلك الاستعداد الطبيعى لدى العامة ، لتقبل كل عجيبة أو غريبة يطويها هذا العالم الملىء — فى عرفهم — بالألغاز والأسرار ، مما ينتهى بالبعض إلى العكس من هذا تماماً ، فيعتقد أن وراء هذه العيون التى فقدت نضارتها ، ووراء هذا الوجه الجامد ، الذى لا يكاد يعبر عن مختلف الأحاسيس ، وراء هذا كله ، بلادة الذهن ، وتعطل الذكاء ، والمواهب ، ولا يستغرب هذا على من اعتقده من المبصرين ، وقد اعتادوا أن يقوموا بأعمالهم على ضوء الإبصار .

ومن القصص الطريفة التى يعرضها لنا الكاتب السيكولوجى ، مستر هايز ، القصة التالية :

حاول أحد الأطباء أن يجرى اختباراً على أحد العميان ، من ناحيـــة مدى حساسيته للمدركات الخارجية ، فجمع بين فنان أعمى ، وخطيبته السابقة التى انفصل عنها لسبب من الأسباب ، فعملت كممرضة فى إحدى المستشفيات . وكانت هذه الممرضة — أو بالحرى الخطيبة السابقة — تتردد عليه لتمريضه ، دون أن تخبره بحقيقتها حسب تعليمات الطبيب ، ولكن صاحبنا هذا ، جذبته فى صوتها نبرة غير غريبة عنه ، دون أن يدرك أين سمعها ، إلى أن تذكر أخيراً ، شبه صوتها بصوت خطيبته السابقة ، ولكن منعه الحياء من الخوض معها فى مثل هذا ، حتى انتهى به الأمر إلى أن أقنع نفسه ، أن هذا الصوت ليس إلا مجرد تشابه بمحض الصدفة ، خصوصاً لم تشر له الممرضة إلى سابق معرفتها به . وهكذا أخذت تدور القصة وحوارها حول هذه الخدعة .

ونحن إذا أردنا أن نفحص مجريات الحوادث فى هذه القصة على ضوء علمى إلى حد ما ، نجد أولا ، أن الخدعة إلى هذا الحد تكاد تكون مستحيلة ، إذ يعتقد كثير من علماء النفس أن فى صوت الإنسان كثيراً من شخصيته وخلقه ، كما فى رؤية الوجه . فإن كان لك أن تذكر صديقك عند رؤية وجهه ، فليس من المستبعد أن تدركه حين تسمع صوته ، خاصة وأن الأعمى ، يحاول أن يركز انتباهه عند سماع الأصوات ، فى نبرات أصحابها ، حتى لا تفوته ، وكم إذن ، لوكان هذا الصوت صوت خطيبته الذى ألفه وقتاً ليس بالقليل ؟ وإذا حاولت أن تختبر آلاف الأصوات وتحللها ، ستجد أن لكل شخص طابعه الخاص فيها ؛ ويقرر أحد علماء النفس العميان أنه لم يستعص عليه قط طوال حياته ، التمييز بين صوتين ، يعرف صاحبيهما . وفى هذه القصة التى ذكرناها ، إذا لم يدرك الأعمى صوت خطيبته السابقة فإن لها جوها الخاص الذي يعرفه بها ، وهى الحساسية التى تقرب بين الجنسين ، وهكذا تجرى حوادث القصة ، فيجلس الطبيب مرة فى إحدى الغابات على كتلة من الخشب ، وحوله الأعمى ، وخطيبته ، ويحاول الطبيب أن يمهد للتفاهم بينهما دون أن يشعر الأعمى بقرب خطيبته من مكان وجوده ، مع أنه ثبت أن لدى العميان حاسة لإدراك الموانع ، فيميزون الأجسام فى دائرة لا يتجاوز قطرها من عشرة إلى اثنى عشرة قدماً .

ولعل من الطرائف فى هذه القصة الخيالية ، أن هذا الفنان يجلس إلى مكتبته فى كرسى مريح وسط الغرفة ، وقد جعل عند أطراف أصابعه : خيطاً أزرق يقوده إلى المعزف ، وآخر أخضر يقوده إلى الآلة الكاتبة ، أو أصفر يؤدى به إلى رف الكتب بينما تقرر القصة أنه يتجول فى الشوارع المزدحمة وحيداً ، ومن مكان إلى آخر دون أية مساعدة .

هذا وغيره من الأمثلة التى نقابلها فى الأدب الشعبى ، يرينا كثيراً من الأخطاء الشائعة فى الكتب التى تحاول أن تفسر حالة العميان وحياتهم ، دون أن تكون لهم معرفة وثيقة بالموضوع الذى يكتبون عنه ، ولعلهم فى هذا مدفوعون إلى تشويق القارئ ، بأخيلتهم دون تعمد حقيقة ، أو عناية بتدارس الموضوع .

بل وأكثر من هذا ، نلاحظ ذلك بين القائمين على مدارس العميان وملاجئهم ، مع تنزيههم عن بعض الأخطاء الأولية ، فهم يعرفون مدى قدرة الأعمى على العمل ، واستغلال مواهبه للإنتاج ، وما يزالون بهم حتى يستقلوا بأنفسهم عن كل مساعدة

خارجية ؛ ولا ينبغى أن ندهش حين نجد أشخاصا لهم خبرتهم بشئون العميان يعبرون عن آراء يعتقدون أنها يقينية ، وهى ما زالت فى حاجة إلى إثبات علمى دقيق : فنحن نسمع منهم مثلا أن العميان — كمجموعة عامة — يثقون بالناس ، مرحون ، ومن الصعب عليهم أن يؤدوا عملا فى مدرسة أو دكان ... هذا كله يجعلنا نحذر من التكلم عنهم كجماعة أو طائفة لها مميزاتها المشتركة العامة ، فإن كلمة العميان لا يمكن أن نستعملها فى معنى شامل ، فليست هناك فكرة خاصة تقابل كلمة « العميان » . فالأشخاص الكفيفون يختلفون — تماماً كالمبصرين — فى الكفاءات ، والأذواق ، والأخلاق ، والمواهب ، وفى كلمة ، فى كل ما من شأنه أن يكون الشخصية . فبعضهم حاد الذكاء ، والبعض بلغ غاية الغباء ، والبعض على شىء كثير من الكبرياء ، والبعض عار تماماً عن تقدير أهميته وشخصه ؛ بعضهم قوى الأخلاق ، وغيرهم ضعيف الإرادة ، فكيف يمكن إذن أن نتكلم عن العميان كما لو كانوا يخضعون لقانون صارم لا هوادة فيه ؟

إذن يبدو أنه من الخطأ أن نحاول التعميم وتطبيقه عامة على مختلف الأشخاص ، إذ أن هذا يتأدى بنا إلى الكثير من الخطأ ، طالما توجد لكل أعمى شخصية ، تجعله يمايز زميله تماماً ، لذا ننتهى إلى أنه ينبغى أن نتكلم عن العميان كأفراد ، لا كحلقات فى سلسلة واحدة ، شأنهم فى هذا شأن جميع العاهات المادية الأخرى ، أو العقلية : كضعف العقل ، أو الصمم ، أو الكساح ؛ وهذه لا يمكن أن تطلق على جماعة يتصفون بصفات خاصة بكل طائفة ، يخضع لها جميع أفرادها المتباينون عقليا ، ومادياً ، واجتماعياً .

كذلك ينبغى أن نفرق بين من ولد أعمى ، فأحاطت به سلسلة من المشاكل الحيوية ، وبين من أصيب بهذه العاهة بعد الميلاد ، فأصبحت لهم عقيدتهم النفسية ، والبيئية ، كما نتساءل عن سبب فقد الإبصار ، هل المرض ، حادث ، أو أى شىء آخر ، أى نلاحظ الدرجة ، والشدة ، والمدة ، وآثارها جميعاً .

ورغم هذه النظرة التى بسطناها سيظل الكثيرون يخضعون فى كلامهم عن العميان ، لقانون التعميم ، كما نتكلم عن الأغنياء والفقراء ، ولكن يجب أن ندرك خطر التعميم خلف الحقائق المشاهدة .

على أن هناك ، إلى جانب هذا النوع من الأدب السطحى الذى ذكرنا أمثلة منه نوعاً أدق من الأدب العميق ، يتميز بمحاولته التحليل التربوى ، السيكولوجى ،

لأسباب العمى ، وأنواعه ، والطرق المتبعة فى التغلب عليه ، وإدارة معاهد العميان ، ودراستهم كجماعة ثم كأفراد ، وما أثر ذلك فى تولد المشاكل المحيطة بهم ، ومدى استعمالهم للحواس الأخرى ، والخصائص العقلية للعميان ، وأثر عاهتهم على مزاجهم العاطفى.

ولعل هذا العرض الذى قدمنا به ، يرينا الطريق الشائك ، وما يحف به من صعاب ، عند دراسة مثل هذا النوع . ولكن ما يسهل الأمر للباحثين ، تقدم الأساليب العلمية ، وإمكان إخضاع دراسة الظواهر النفسية لتجاريب المعمل . مما يساعدنا على تثبيت علم النفس للعميان على قواعد أساسية دقيقة .

وعلى كل ، وإن لم ينته علم النفس إلى قوانين ثابتة تماماً فى هذا الموضوع ، إلا أن دراسته قد تفيد فى القضاء على كثير من الخرافات التى تتعلق بحقائقه ، والتى نذكر منها على سبيل المثال — ذلك الاعتقاد السائد بأن الظلام المحيط بالأعمى يعوضه بحساسية فائقة لو حقت ، لدفعت الكثير من الشعراء والموسيقيين والأدباء إلى اعتبار أنفسهم محظوظين لو أصيبوا بالعمى ، حيث تشحذ قريحتهم ، وتجلى حواسهم ، مما يجعل مجال الإنتاج أمامهم واسعاً ، شاسعاً . ولكن هذا التعويض فى الواقع ، ليس له وجود ، فإن وجد ، فمصادفة ، أو بحسب قانون الاطراد بين العميان ، شأنهم شأن المبصرين . أو ذلك الاعتقاد الذى ساد فى العصور الوسطى بأن العمى نوع من العقاب أنزله الله على عباده الصالحين لتطهيرهم ، فخضع التفسير هنا للروح الدينى السائد فى ذلك الوقت . على أن هذا كله قد أخذ يتلاشى أمام أضواء العلوم الحديثة ، فأخذ علماء النفس التجريبيون يدرسون مدى العلاقة بين الحواس وبين فقد إحداها ، أو ما يهمنا هنا ، بين مدى اللمس وحدته ، وبين مدى النظر وفقده ، أى هل لو وضعت شكلا اسطوانياً ، وآخر مستطيلا أمام أعمى أبصر فجأة ، هل يمكنه أن يميز بين هذين الشكلين دون أن يمسهما ؟

هذا وغيره ، ما زال ، موضع كثير من الدراسات السيكولوجية ؛ وإن أمكن حتى الآن تحديد مركز الأعمى من العالم الخارجى إلى الحد الذى يسمح به استخدام الحروف البارزة (بريل) ، ونجاح طرق تدريب الأعمى على الإلمام بالأماكن القريبة من الموضع الذى يعيش فيه ، باستخدامه حواسه دون بصره .

ومن السار أن نرى كثيراً من معاهد العميان تدرس ، نفسانياً ، نفسيه العميان وعقليتهم وإحساسهم وتكوينهم للعلاقات المكانية وتقديرهم للزمن ... رغم أن كثيراً من المناقشات ما زال قائماً حولها .

وهذا يؤدى بنا إلى سؤال ختامى : هل يشبه المبصرون العميان فى كل شىء إلا فقد الإبصار ؟ وهل للفروق بين العميان ، شخصية أو موضوعية ؟ وهل هناك كثير من الفروق فى المواهب والأخلاق بينهم ، كما بين المبصرين ؟ وهل يصارعون الحياة كما يصارعها المبصرون ؟ أم هم كقطيع فقد راعيه عليه أن يتسم بالكثير من الشجاعة الأدبية لكى يقاوم العالم الذى يحيط به ؟

طبعاً هذا وغيره ، موضع دراسة ليست بالقصيرة ، ولكن مهمة العلم الأولى ، هى أن يحلل المواقف المعقدة ، لكى يحاول وضع أساس ثابت لكل مسألة ينتهى فيها بتقدير موضوعى ، وبهذا يمكن أن يقوم أساس ثابت لدراسة العميان على ضوء علم النفس الحديث .

إن هذه الكلمة التى أحطنا فيها بأهمية دراسة أحوال العميان تقودنا إلى الكلام عن بعض ما يحيط بهم من شائعات هى أساس كثير من المعتقدات المضللة التى من بينها موضوع « التعويض الحسى » أو « تناوب الحواس » .

فكثيرا ما نسمع ذلك الاعتقاد الشائع بأن الإنسان إذا حرم من إحدى حواسه أو أصابها عطل لسبب من الأسباب فإنه يستعيض عنها بحساسية شديدة فى أعضاء الحس الأخرى وقد ساعد على انتشار هذا الرأى ما يتداوله الناس من القصص والمبالغات حول هذا الموضوع .

ولقد حاولنا أن نبين نصيب هذا من الصحة وسألنا بعض من فقد حاسة السمع ، وقد تقدم به السن ، نجده يعترف بأن قواه البصرية رغم أنها سليمة فهى تخضع لحكم السن وتقدم الزمن وما يترتب على ذلك من ضعف لا يقاومه ما يدعيه البعض من أن الإبصار فى هذه الحالة يعوض حاسة السمع . ومن بين العلماء الذين اشتغلوا بدراسة أحوال العميان من يؤيد هذه العقيدة فيعتبرون أن الإنسان الذى يتمتع بحواسه كاملة يستهلك فى كل حركة من حركات هذه الحواس قوة عصبية توزع على كل الحواس جميعاً فى حين أن فقد حاسة من الحواس يجعل القوة العصبية المنصرفة إليها تصبح حظاً مشتركاً بين الحواس الأخرى .

ومن هنا يعتبرون أن القوة الإدراكية التى يتمتع بها الأعمى أكثر دقة من التى يتمتع بها المبصرون ؛ ولكنا نلاحظ بداهة أن هذا التعويض لا يمكنه أن يسد الفراغ الذى تركته حاسة الإبصار ، ويستدلون بحقيقة أخرى وهى أن الأعمى أكثر مهارة من المبصر فى حساسية اللمس ويفسرون هذا بأن القوة العصبية ، الموزعة

بين الحواس المختلفة لدى المبصر تكون أكثر تركيزاً لدى الأعمى لأنها تعرض على المجهود العصبي استهلاكه فى حاسة بعينها .

غير أننا نلاحظ أن أنصار هذه الفكرة يعتبرون القوة العصبية أو المجهود العصبي كأنه كمية ثابتة موزعة بكيفيات معينة على أعضاء الحس المختلفة ولعل هذا يبدو واضحاً أنه محض خرافة وبالتالى يسقط من أساسه .

وقد يبالغون فى هذه الادعاءات فيزعمون أن حاسة من الحواس يمكن أن تحل محل أخرى فى نفس خصائص عملها وإذا قبلنا هذا القول على علاته ، لجاز لنا أن نعتبر أن العميان يمكن أن يتعلموا إحساسات بصرية عن طريق حاسة السمع وإحساسات شمية عن طريق حاسة اللمس .... ولعل هذه الأفكار الغريبة والادعاءات التى تقوم على هذا النوع من التعويض الحسى يمكن أن تفسر على أنها تدريب حاسة من الحواس للقيام بعمل حاسة أخرى دون أن تقوم مقامها تماماً . فإذا أغلقت عينى أحد الأشخاص لأمكنه أن يخبرك إذا كان ما بيده برتقالة أو تفاحة مستعيناً بحاسة اللمس أو الشم ولعل هذا يبدو بشكل واضح لدى الأعمى الذى تجبره الظروف على أن يستعين بحواسه الأخرى التى ينتهى بها الأمر إلى أن يدربها صاحبها بحكم الظروف لكى تقوم ببعض الأعمال التى كان يمكنه أن يستعين عليها بالبصر وعلى هذا يصبح اختصاص إحدى الحواس على تقبل إحساسات بعينها موزعاً على الحواس الأخرى .

ولكن المسألة ليست مجرد تخصص حاسة ما فى استقبال نوع معين من الإحساسات أو فى حالة عطلها تحويل اختصاصها إلى حاسة أخرى ، وإنما العامل الأكبر الذى يلعب دوره فى هذا الأمر هو تأويل الإدراكات الحسية تأويلا يمكن الشخص من إدراك المدرك الحسى على نحو سليم أو أقرب إلى الصحة ؛ من هذا يمكن للأعمى أن يدرك الورد أو الزهور بادراك رائحتها ويدرك الأشخاص بسماع أصواتهم بل وأكثر من هـــذا فإنه قد يستعين بحاسة الشم فى إدراك وظيفة الذى يخاطبه ، رساماً أو صانع لفائف أو غيرها من الحرف التى تعطى لصاحبها صبغة شمية خاصة .

ويقرر أحد العميان أن الإدراك الشمى هو الذى يمكنه من أن يعرف أنه يمر ببقالة أو محل منسوجات أو مخازن أخرى . فإذا عرف السبب لم يعد الأمر غريباً أو فيه ما يدعو إلى الدهشة .

فمن المعروف أن العميان لديهم حاسة السمع قوية، لا لأنها تعوض حاسة الإبصار تعويضاً كمياً فى القوى العصبية كما هو شائع خطأ ، وإنما لكونها حادة ومدربة بشكل غير عادى ، فأصبح الأعمى وقد اعتاد أن يعتمد على أذنية فى إدراك ما يجرى حوله فاكتسب بهذا حساسية زائدة ليتعرف بها على ما حوله أو يدرك ما يقوم به شخص آخر معه فى نفس المكان .

وقد يمهر بعض العميان فى استخدام حاسة أو بعض الحواس بحسب الدربة والمران والظروف التى تدفعهم على الاعتماد على حاسة دون غيرها ، فالمسألة حتى الآن تقوم على أساس تدريب الحواس وشحذها .

وإذا اتخذنا حاسة اللمس مثلا لما يحدث لباقى الحواس نجد أن ما يبدو لكثيرين من أن اللمس أو على مدى أوسع حاسة تقدير الأشياء باللمس ، تكمن فقط أو أصلا فى اليد ، يخالف الواقع — فجلد الوجه والأصابع شديد الحساسية ولعل هذا هو الذى يمكن بعض العميان من أن يدركوا الأشخاص الذين يمرون بهم أو الموانع التى تعترضهم ، ولا شك أن الصوت له أثره فى هذا الادراك فى بعض الأحوال . كما أن قدم الأعمى تكتسب حساسية غريبة تمكنه من التعرف على البقع التى هو فيها بأن يحس بقدمه ما انخفض وما ارتفع من سطح البقعة التى يسير فيها مثل وعورة الأرض أو اختلاف السمك أو وجود أبسطة — هذا كله يساعد الأعمى على إدراك مكانه فى الحجرة .

ويذكر أحد الأدباء الأمريكان وهو كفيف البصر قصة عن نفسه فيقول — فى أحد الأيام كنت واقفاً عند ناصية الطريق انتظر المركبة التى تقلنى إلى منزلى وقد انصرفت إلى الحديث مع أحـد أصدقائى فى مناقشة طويلة حتى جذب انتباهى صوت مركبة تقترب فأصغيت لحظة — إذ أن هناك طريقين للمركبات فى هذه الجهة — وبعد ذلك قلتُ له — مستأذناً — إن المركبة التى سأستقلها قادمة فنظر إلى هذا الصديق فى دهشة أدركتها من لهجته وقال « يالها من آذان ! » ذلك أنه لم يدرك كيف ميزت بين العربات التى تجرى على هذين الطريقين المختلفين ولكنه افترض وجود قوة خفية نتمتع بها نحن العميان ولا يدركها سائر البشر .

ولكن الواقع أن تفسير هذا الأمر ينحصر فى أننى أدركت صوت العربة واحتكاك السلك الكهربائى وما يتبع ذلك من اندفاع العجلات على القضبان وقد اعتدت

أن أستنتج من هذا حجم العربة ووزنها بسهولة بما لا يهتم به الرجل المبصر فالطريقان المشار إليهما آنفاً ، يجرى فوق أحدهما عربات قصيرة خفيفة مفردة وعلى الآخر عربات طويلة ثقيلة مزدوجة وكل منها يصدر عنها صوت خاص ، فيصدر من النوع الأول صوت حاد مذبذب ويصدر من النوع الثانى صوت ثابت مكتوم . ومن هذا النوع الأخير ، كانت العربة التى ينتظرها راوى هذه الواقعة .

هذه الحقائق البسيطة غابت تماماً عن ملاحظة صديقه المبصر ، لأنه يعتمد على البصر فى إدراك ما حوله ، فلم ينتبه إلى الطريق التى أدرك بها الرجل الأعمى ما حوله ، ولهذا عد إدراك صديقه الأعمى من الأ عاجيب .

وبهذا الصدد ، فلا بأس من الإشارة إلى أن هناك رأياً يقرر أن للأعمى قدرة على تميز الألوان المختلفة بمجرد اللمس ، ولهذا الرأى سلطانه القوى عند جمهور العامة ، على أن التجارب العلمية فى هذا الموضوع تحاول أن تدحض هذا الرأى ، فتفسره بأن هذا التمييز ممكن عن طريق إدراك الرائحة الخاصة المنبعثة من كل لون على حدة ، أو عن طريق درجة الحرارة المختلفة الموجودة فى الألوان المتعددة ، وغير ذلك مما يحتاج إلى إثباتات أوضح وأكثر تأكداً .

وإن انتشار مثل هذه الأفكار قد يرجع إلى ميل الأعمى إلى الخداع أو الكسب الشخصى ، أو الظهور بمظهر رجل المعجزات ؛ من هذا بعض ما كتبه المهتمين بهذه الشئون ، عن رجل أعمى فى باريس ، كان يحتفظ بمكعبات خشبية ، وكل وجه من أوجهها مطلى بلون خاص فكان يدعى أن فى قدرته أن يميز بينها بحاسة اللمس ، وكان يعمل هذا أمام جمع حاشد ، يرضى به غروره من ناحية ، ويزيد موارده من ناحية أخرى . وبالبحث ، اتضح أن بعض الأوجه ناعم الملمس والبعض الآخر خشن ، ويمكن عن طريق اللمس تمييز درجات النعومة ، وبالتالى يميز الألوان التى تدرب عليها من قبل .

وهناك شخص آخر ، قام بما فعله الرجل السابق غير أنه استعان بالروائح ، بدل الملمس الناعم والخشن ، فكان يميز الألوان المختلفة بتقربها من أنفه بطريقة غير ملحوظة . بهذا وغيره ، انتشر الرأى القائل بأن العميان يميزون الألوان بواسطة حاسة خفية ، نسجت حولها الشائعات ، التى أصبحت بمرور الزمن ، عقيدة ثابتة عند الكثيرين .

وأراد أحد أساتذة معهد للعميان أن يتحقق من قدرة العميان على تمييز السطوح المختلفة فى درجات خشونتها ، أو نعومتها ؛ فقام بعمل بضعة خرائط جغرافية للعميان ، وحدد فيها الخطوط البارزة التى تبين الأنهار والمدن والحدود ، واختبر الخرائط بنفسه ، بعد أن أغلق عينيه ، وأمكنه أن يتبع كل خط بأنامله ، التى اكتسبت بعض حاسيتها نتيجة العمل المتواصل فى الحفر والأعمال اليدوية المختلفة ، ثم حاول أن يستفيد بهذه الخرائط فى تدريس فصل كبير من فصول البنات الكفيفات ، ولكن فشلت حاسة اللمس ، فى إثبات قدرتها على ذلك ، فاختلطت على البنات الخطوط البارزة ، ولم تعرف أناملهن الطريق على صفحة الخريطة ؛ وأرسل بعد هذا ، بعض الخرائط إلى معاهد العميان المختلفة ، ولكن النتيجة تساوت لدى الجميع ، إذا أجمعت الإجابات على أن الخرائط جميلة ، ولكنها ليست بالدقة التى تمكن من إدراكها باللمس ، أو استخدامها فى معاهد العميان .

وبوجه عام يمكن أن نعتبر ، رغم أن الأعمال الآلية فى مجموعها تقوم على التمييز الحسى بواسطة اللمس ، فيقوم بها العميان على درجة كبيرة من المهارة يتوهمها العامة نوعاً من العبقرية اليدوية ، كاللعب على البيانو أو الكتابة على الآلة الكاتبة ، أو الرقص ، أو الغزل والنسيج ، أو عمل السلال من البوص ، والمقاطف من سعف النخيل ؛ ولكن لو فكرنا قليلا لأدركنا أن هذه القدرة نفسها موجودة لدى المبصرين ، غير أننا لا نسند إليهم هذه النعوت الغريبة والقدرة الفائقة لسبب واحد ، هو اعتقادنا السابق بأن ليس بغريب على المبصر أن يقوم بأى عمل يسند إليه ، وعجز الأعمى عن ذلك .

هذه الظاهرة عينها تبدو فى المهارة الغريبة التى يظهرها بعض من يعمل فى شؤون القطن ، أو الحبوب وتميز أنواعها ، أو درجاته ، أو شؤون الغزل والنسيج ، هذه كلها ، التى تبدو فى المبصرين والعميان على السواء . أليس من عادة الهنود الحمر أن يدركوا أن غريباً يقترب منهم ، وهو على بعد كبير ؟ بل وقد يميزون إن كان هندياً أو أوربياً أو زنجياً ، وهم ليسوا من العميان . ويفسر هذا باعتمادهم الكبير على حاسة الشم فى هذا النوع من التمييز بين الأجناس المختلفة ، والذى اعتادوا بالدربة والمران على مر الزمن . ومن هذا القبيل إدراك العرب لرائحة النار عن بعد ، ومهارة الجراحين والميكانيكيين والمهندسين الكهربيين وعمال السيارات .

إذن لا تخرج المسألة فى أبسط أوضاعها عن خليط من الدربة والمران ومحاولة تركيز

الانتباه لدى الأعمى ، بحكم الظروف التى تحيط به ، وتدفعه إلى إدراك ما حوله بهذه الكيفية التى قد تبدو غريبة لمن يتلمس الأمور فى ظواهرها . ويوضح هذا ؛ المثال التالى على لسان صاحبه الأعمى ، فيقول :

إنى أقضى المساء مع صديق يسكن على مبعدة من منزلى ؛ وإذ يحين موعد عودتى ، أحيى صديقى تحية المساء وأتخذ وجهتى نحو المنزل على الأقدام . ماذا يحدث ؟ يغلق الباب ورائى ، ثم أخطو إلى الخارج على طريق مرصوف ، يؤدى إلى الطريق الرئيسى . وفى نفس اللحظة التى أدرك — بحسب العادة — أنى وصلت إلى الطريق الرئيسى ، فان طرف العصا يجعلنى أدرك بدء ارتفاع الطريق ، وأنى على الطريق الصحيح ، ثم ينحدر الطريق بلطف حتى يصل بى إلى أرض مستوية رصفت بأحجار كبيرة ، وأظل أنقل قدمى فيما بينها وعصاى تسبق قدمى ، دون خوف أو تردد ، طالما أشعر أن الطريق خال . ثم أعبره إلى الجانب الآخر وإذا أصل إلى حافة الطوار المقابل ، فإن انحداره التدريجى يشعرنى بالمسافة الباقية أمامى لكى أصل إلى حاجز يعترض طريق العودة ، وبعد هذا أسلك الطريق دون تعثر حتى أصل إلى درج باب المنزل ، وأضع المفتاح فى موضعه من الباب وهكذا أصل إلى منزلى وكأنه ليس بى من حاجة إلى البصر .

وفى أثناء الطريق كله هناك عدة إحساسات تساعدنى فى الواقع على السير دون تعثر ، آذانى مفتحة ، حيث ينبغى أن أدرك إذا كان هناك أناس يتحركون ، وإذا وجد أحدهم توقفت عن السير حتى يخلو لى الطريق ، ويمكننى أن أميز بحاسة لا أدرك كنهها ، باقتراب خطر منى ، أو سلامة الطريق ، فأتابع سيرى فيه ، وإذا صادفنى مرتقى أو منحدر أحسست باطمئنان غريب لأنهما يدلانى على الاتجاهات والمسافات حسب ما اعتدت عليه وإذا وصلت درج المنزل أحصيته حتى أصل إلى الباب الداخلى ، وهكذا . . . .

ولعل هذه الفكرة البسيطة ، تجعلنا نتخلى عن الرأى السائد عن التعويض الحسى لدى العميان . وكل منا يعرف أن الأعمى يقوم بغريب الأعمال ، عن طريق السمع واللمس والشم ، ولكن المقاييس الدقيقة ، وحسن تقدير الأمور ، يجعلنا ندرك أنهم لا يبزون المبصرون فى أى نوع من أنواع التمييز الحسى بالمعنى السائد ؛ لأن أعمالهم ، هى نتيجة مران مستمر ، ووليدة تجربة طويلة ، يعتمدون فيها على تركيز الانتباه ، ومحاولة تأويل المدركات ، تأويلا

عقلياً ، وحسياً معاً ، بحيث يظل تفكيرهم يقظاً ، لكل ما عساه أن يقابلهم من ظروف أو يحيط بهم من مواقف مختلفة . وهـــذا لايجعلنا نميز تمييزاً كبيراً بين ما يقوم به المبصرون والعميان على النحو الذى يسود بين الكثيرين من العامة .

جليل شكرى عجبان